لمناسبة الرحلة الملكية في الصحراء الغربية

لسان الصحراء
في رحلة جلالة الملك
للمرحوم مصطفى صادق الرافعي

« في شهر أكتوبر من سنة ١٩٢٨ قام المغفور له الملك فؤاد برحلة إلى الصحراء الغربية وواحة سيوة، وكان المرحوم الرافعي يومئذ شاعر جلالته وحادي ركابه ؛ فأنشأ هذه القصيدة يتحدث فيها عن الصحراء لمناسبة هذه الرحلة الميمونة

« واليوم — وبعد عشر سنين كاملة — يقوم جلالة الملك فاروق الأول برحلته إلى الصحراء ليرود المعالم التي رادها من قبل والده العظيم ؛ فلعل في نشر هذه القصيدة لهذه المناسبة ما يقوم بواجب الولاء ويبعث طيب الذكرى »

سعيد العريان

تَسَاءَلَ القفرُ إذ حلّ المليكُ به ... أدار بي موضعي أم حان تجديدي؟
أم بعد زرعي دهوراً لا حصيدَ لها ... من التواريخ، آن اليوم حصردي؟
رَمْلي على الأرض كالدينار من ذهب ... مُلْقىً ضَياعاً وموجوداً كمفقود
أم غَيَّرَ اللهُ أيامي فأسعدني ... مليكُ مصرَ بيوم منه مسعود ؟
كأن لي زمناً ما كان من زَمَنٍ ... وَلا مَشَى بحسابٍ أو بتعديد
والوقت يخضع للساعات تمسكه ... بكل ثانية من غير تبديد
وساعة القفر قفرٌ، فالثلاثُ بها ... كالخمس، كالتسع، لا معنى لتحديد
أم طُولُ صبري على الفقدان عوّضني
بأن يزور قفاري خيرُ موجود ؟
شمسٌ من الله في صدري وما كلتْ ... إلا بشمس من الإنسان في جيدي
أم ما لقيتُ من الحرمان كافأني ... بأن يحلّ بأرضي سيّدُ الجود ؟
مَلْكٌ كأن نباتَ العزّ في يده ... تجنيه من ذهبٍ أيدي المجاهيد
ويسحر الأرضَ حتى الأرضُ من أُفُق
ريسحر الوقتَ حتى الوقتُ من عبد

أم ذاكَ حُلمُ الصحارى بالنعيم سَرَى
وَحرٌّ منطلقاً في هجعة البيد ؟
في القفر دنيا ورا الدنيا نفرُّ لها ... على مطايا الكرى من عيش تنكيد
إني كقطعة وحش صُوِّرَتْ بلداً ... أرضي سواء وإنساني وجُلودي
وَعُودُ آدمَ عُريانٌ بلا ثمر ... وزهرُ حواء محطومٌ بلا عود(١)
فلا بَنِيَّ لهم دنيا تَعُدُّ هم ... فيها ، ولا أنا في الدنيا بمعدود
لو أنزل الله سقفاً من كواكبه ... لهم لبَيْنُوا لما هَمُّوا بتشييد
لو أمسكوا ظلَّ طيرِ الجوِّ في قفص ... ما أمسكوا ظِلَّ عُمْرانٍ بمجهود
وفي عريض فجاجي الشمسُ طالعةٌ ... تزيد في ظلماتي الحيّةِ السود
في الجدب، في الوحش، في الأحياء، في زمني
وفي طبائع أرضي ، في تقاليدي
فاليوم أعرض آمالي على ملكي
وهو الكفيل بمرجُوّي ومقصودي
لعلني خطَّ لي منه كتابُ هُدًى ... وما زيارته إلا كتمهيد ...
لبَّيكِ يا مُعضِلات القفر قد بَعثتْ ... لك العنايةُ صِنديدَ الصناديد
آباؤه الصيدُ هِمّاتٌ مُجَمَّعةٌ ... فيه ، وزاد على آبائه الصيدِ
رَحْبُ الأمانيّ وثّاب على فُرصٍ ... ما أطمعتْ غيرَه في غير تزهيدِ
يرمي بحَبْلَيْهِ : محلولٍ ومُنعقِدٍ ... فيها على كل محلول ومعقود
سرُّ الليوث بعينيه ، فنظرته ... فيها اكتشافُ فريساتِ المواعيد
وتحت راحته سرُّ السيوف، فإن ... أشار راعَ كسيفٍ عند تجريد
وفي أنامله سرُّ الأعنّة : لا ... ينفكّ يطلب ميداناً لتأييد
مليكُ معجزةٍ في أرض معجزةٍ ... مخلّدُ الحمدِ في تاريخ تخليد
وما يُسَدُّ طريقٌ دون غايته ... طريقُ كلِّ سعيدٍ غيرُ مسدود

* * *

ستستفيض على الصحراء همتُه ... نجّاجةً بالمشاريع المحاميد
فيولَدُ الزمنُ المشبوبُ من زمن ... فانٍ تكلّحَ في تلك التجاعيد
هيهات هيهات ما بيني القفارَ سوى ... صبرٍ كصبر (فؤادٍ) غير محدود
هُمُ الأعاريب في تلهيب جمرتهم ... مثلُ البراكين لن تحيا بتبريد

(١) عود آدم : كناية عن الرجل ؛ وزهر حواء : كناية عن المرأة